جزاء التسامح !!

لم يكن من كبار الأغنياء ، ولا من الموسرين الذين لهم مدخر من المال ، وإنما كان تاجراً وسطا ، ليس بالغنى ولا بالفقير ، ينال ربحه فى سهولة لا تكلف معها ، ولا ينظر إلى الدنيا نظرة البخيل أو الشحيح إليها فيتخذ منها فرصة لجمع المال وتكديسه ، والتمتع برنين فضته وذهبه ، وبريق نضاره وورقه ، ثم يقبض كفه عن البسط ، ويغل يده إلى عنقه ، فلا ينفق ولا يحسن ، ولا يجود ولا يتصدق ، بل يظل خفيرا على ما يجمع حارسا على مافى خزائنه ..

لم يكن من هذا النوع الذى يعيش لنفسه فقط ، ولا يعيش لغيره أبداً وإنما كان تاجراً صادقاً ، لا يغش ولا يكذب ، سهلاً متسامحاً ، فهو لا يتعنت إذا اشترى ، ولا يطمع إذا باع ، وإنما يكتفى بالربح القليل ، بحيث لا يثقل على المشترى ولو كان معسراً ..

وكان يرى فى ذلك تعاونا مع الناس وجلبا للحياة والحركة والنشاط ، فما دام هناك تساهل وتسامح ، وجدت الثقة بين البائع والمشترى ، ووجد الحب الوثيق ، الذى هو أصل كل خير ، ومنبع كل إصلاح ، ومدعاة للتعاطف والود ، فما أمس هذه الأمور المادية بشغاف القلوب ، وأكبر

وكان ينقم على الذين لا يبيعون إلا بثمن عاجل ، ويرى فيهم إنسانية ناقصة ، طغت عليها المادية الآثمة ، وحرمت من الروحانية السامية التى تنظر إلى حميد الصفات ، وكامل الخلق ، وجميل العادات ، بجانب النفع المادى ، والربح الشخصى ، فليست الحياة مالاً ومتاعاً ، وربحا وفيراً ، ثم لا شيء بعد هذا . .

وأحبه الفقراء والأغنياء ، المعسرون والموسرون ، كل يجد فى معاملته سهولة ويسراً ، وتسامحاً ورفقاً ، أما الموسر فلا يثقل عليه بالربح الكثير بحيث يتضرر من السلعة ولا يجد فيها فائدة ، بل يعامله بالحسنى ، ويأخذ منه من الربح ما تجود به نفسه ، ولا يجد فيه إثقالا عليه ، أو حرجا فى دفعه . .

وأما الفقير فكان حبيبه وخليله ، لا يرد له طلباً ، ولا يمنعه ما يريد ، فإذا كان معه الثمن فبها ونعمت ، وإلا فإنه يُنظره ولا يطالبه بثمن ما أخذ ، حتى يفرج الله كربته ، ويمحو عسره ، ويكشف ضره وشدته ، فإذا عجز عن دفع الثمن بعد الإنظار والتأجيل ، تجاوز عنه ، ولم يطالبه بحال من الأحوال . .

يالله ! لقد كان هذا التاجر الأمين ، بمثابة ملك فى الأرض يفرج كرب الناس ، ويأخذ بيدهم فى الشدة ، ويعاونهم فى الضيق ، لينظروا إلى الحياة نظرة سهلة جميلة ، لا صعوبة فيها ولا مشقة ولا قبح ، ومع هذا كله ، كان يربح ويكسب ، وكان يحيا حياة جميلة ، وكان لا يخسر كما يخسر غيره من

التجار ، الذين ابتلاهم الله بالجشع والطمع ، وسلط عليهم البطر والأشر ، فهم لا يكتفون بالربح الحلال ، بل يبالغون فيه ، إلى حد يخيل للمشترى أنهم أعداؤه ، يريدون الإضرار به ، وسلب ما معه من مال . .

* * *

كان هذا التاجر الأمين ، يخشى الله حق خشيته ، و يتقيه حق تقاته و يرى فى عملائه وزبائنه أحبابا له لا أعداء ، وأن التجارة تعاون حبيب ، وأنه فى حاجة إليهم ، كما أنهم فى حاجة إليه ، فلا يمكن أن يستقر الأمر لتاجر بدون زبائن وعملاء ، ولا يمكن كذلك أن يستقر الأمر لعملاء وحرفاء بدون تاجر . . هو فى حاجة إليهم ليبيع لهم ، ويربح منهم ، فإذا كان بينهم المعسر الذى لا يجد ، فيجب أن يساعده حتى يجد ، و إذا كان بينهم الموسر الذى يجد فيجب أن لا يتشدد معه . .

وهكذا جعل الله الناس إخوانا متعاونين ، فإذا وجد هـذا التعاون سعدوا ، و إذا عدم هلكوا ، وحلت بينهم العداوة والبغضاء ، وتمنى بعضهم زوال نعمة بعض ، وشملهم الحسد المقيت ، وسرعان ما تذهب ريحهم ، وتضعف شوكتهم ، ثم لا يكون لهم بعد ذلك شأن يذكر ، ولا رأى محترم .

المـال مال الله ، ولقد أنعم الله عليه بالـكثير منه ، بالنسبة لغيره من المعدمين الفقراء ، فما الداعى لأن يتفرد هو بالعظمة واليسر ، و يترك غيره

وبهذه الروح السامية ، قابل هذا التاجر الحياة ، وهو بها سعيد ، سعيد بحب الناس له ، وبحبه للناس ، وهو يعتقد أن الله البارئ الأعظم ، عن عمله من الراضين ، وما أسعده بهذا الإحساس ، وذلك الشعور الذى سيطر عليه ، وتملك عواطفه ، ودفعه إلى هذه الخطة الفريدة فى معاملة الناس . .

ومن عجب أنه لم يلق شدة طول حياته ، ولم يقع فى مكروه ، ولا ضرر يخشاه ، وأن أعنف المشاكل التى تثقل بكواهل الناس ، كان ينظر إليها نظره إلى شئ محبوب لا صعوبة فيه ولا عسر ، وما كان أسرع انفراجه ، وزوال ما فيه من ضيق . .

وما دام يشعر بهذا الشعور ، ويحس بذلك الإحساس ، فى حياته الدنيا ، فإن الله سبحانه سيكفيه شدته وضيقه ، وكربه فى الآخرة ، ولن يدعه لنفسه أبداً ، واستولت عليه هذه الثقة العظيمة بالله سبحانه ، حتى كانت فى موضع العقيدة الثابتة ، والإيمان القوى . .

* * *

إذا كان يوم القيامة ، أتى بهـذا الرجل المتسامح فى بيعه وشرائه ، ووقف بين يدى ربه ، حيث لاينفع الإنسان والده ولا والدته ، ولا أقرب المقربين إليه . . لاينفعه سوى عمله الصالح الذى قدمه فى دنياه . . أما المال والولد ، أما المنصب والجاه ، أما العقار والضياع ، فلا قيمة لهذا كله ، بجانب صدقة مقبولة ، وعمل يتوفر فيه الإخلاص ، وطاعة خالصة لله ، لم يشرك معه أحدا فيها . . وقد لا يكون لهذا قيمته الآن ، أما هناك ،

«يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» فى هذا اليوم يدرك الإنسان قيمة العمل الصالح مهما كان قليلا ، فرب حسنة تكون سببا فى نجاة الإنسان ، وإنقاذه من النار ، ودخوله الجنة . .

قال الله سبحانه وتعالى يخاطب هذا العبد :

— ماذا عملت فى الدنيا ؟ !

فيفكر الرجل حينا ، فلا يكاد يذكر شيئا من الخير عمله ، أو معروفا قدمه ، أو إحسانا له أثر بارز فى حياته . . إنه لا يذكر شيئا من هذا كله . .

وإن الموقف رهيب ، وإن بدنه ليرتعد خوفا ووجلا ، وخشية من الله القاهر أن يغضب عليه ، فيأمر بذهابه إلى النار . . وظل هكذا فلم يذكر شيئا كذلك ، فقال فى خوف واضطراب :

— لا . . ما أعلم شيئا من الخير عملته فى الدنيا . .

— تذكَّر . .

وهنا تذكر الرجل شيئا ، فقال على الفور ، وكأنما انتشل من حفرة ، وأنقذ من وهدة . .

— لقد آتيتنى مالاً من لدنك ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقى الجواز والمسامحة ، فكنت أتيسر على الموسر ، وأنظر المعسر . . كنت أترك المعسر فرصة تمتد حتى ينفرج ضيقه ، وتذهب شدته . .

وصمت الرجل ، وهو يعتقد أن هذا العمل يسير لا قيمة له ، بجانب

أمل فى الله أن ينقذه ، وأن يفرج كربه ، كما أنقذ آلافا من الناس من فضيحة محققة، وكما فرج عن آلاف كذلك كربهم وما كان يضنيهم و يثقل عليهم من شدائد وأهوال . . وما كان أعظم فرحه ، وأكثر سروره ، حينما استمع إلى الله سبحانه وتعالى يقضى بإنقاذه من العذاب ، ونجاته من العقاب :

— أنا أحق بذا منك . . تجاوزوا عن عبدى . . !!

ونجا الرجل وهو لايكاد يصدق أنه نجا ، وسارت به الملائكة إلى دار النعيم ، حيث يجد فيها ما أعده الله لعباده المؤمنين ، الذين أخلصوا له الطاعة وآثروه بالعبادة ، وسلمت منهم النية ، وثبت الإيمان ، فكان ضياءاً ونوراً ، وهاديا إلى الحق ، و إلى صراط مستقيم . .

وما أسعد أهلَه بما أعده الله لهم من نعيم ! .. وما أسعدهم كذلك بالتمتع برؤية الله الكريم . . ! !